جامعة باتنة 1 –قسم اللغة والحضارة الإسلامية–

مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر

الملتقى الوطني: الديني والسياسي في التجربة السياسية الإسلامية الأولى من خلال الدراسات المعاصرة

إعداد: يوسف مقارمة وخليل شاعو

عنوان المداخلة: انتقال الحكم من الخلافة الراشدة إلى الدولة الأموية

–قراءة في كتاب الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر هشام جعيط–

محور المداخلة: المحور الثالث: الديني والسياسي في الدراسات الحداثية

الملخص:

للتاريخ حضور واضح في مشاريع المفكّرين العرب المحدثين والمعاصرين على اختلاف مشاربهم، يُحيل عليه كلّ واحد منهم، ويختار منه ما يوافق رؤيته ويخدم مشروعه، ولعل تجربة الحكم في الإسلام في الفترة الأولى تعد ميدانا خصبا ليدلي كل باحث برؤيته، استنادا لمجموعة القضايا والاستشكالات التي ما فتئت تتصاعد نبرتها بين المفكرين، الذين حاولوا صياغة التجربة السياسية للمسلمين، انطلاقا من إعادة البحث في المصادر التاريخية، وباستعمال مناهج حديثة تتيح للباحث فهما أكثر للوقائع التاريخية بعيدا عن تداخل الديني والسياسي.

يعد الباحث هشام جعيط أحد الباحثين الذين حاولوا تقديم قراءة جديدة لمرحلة حساسة من التاريخ الإسلامي والتي عرفت تاريخيا باسم الفتنة الكبرى، من خلال كتابه الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، وذلك باستعراض لأهم جوانبها وأبرز انعكاساتها على مسار الدولة الإسلامية، فماهي أبرز العناصر التي تناولها في كتابه؟ وهل تميزت دراسته بالجدة؟ وماهي الإضافة التي قدمتها؟

أولا: التعريف بالكاتب

هشام جعيط، مؤرخ ومفكر إسلامي تونسي، ولد في تونس العاصمة في 6 ديسمبر 1935م، من عائلة من المثقفين والقضاة وكبار المسؤولين من البرجوازية الكبيرة في تونس العاصمة، وهو حفيد الوزير الأكبر يوسف جعيط وابن أخ العالم والشيخ مُحَمَّد عبد العزيز جعيط.

زاول هشام جعيط تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقية قبل أن يواصل تعليمه العالي في العاصمة الفرنسية باريس، أين تحصل على شهادة التبريز في التاريخ سنة 1962م، تحت إشراف كلود كاهين، ليتحصل بعدها على دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة السوربون بباريس سنة 1981م.

عمل بالعديد من الجامعات منها؛ أستاذ فخري لدى جامعة تونس، كما درس كأستاذ زائر بعدة جامعات عربية أروبية وأمريكية منها جامعة مايك غير بمونتريال، وجامعة كاليفورنيان بيركلي، ومعهد فرنسا، كما تولى رئاسة المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) بين سنتي 2012 و2015م وهو عضو في الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون.

له العديد من الأعمال التي صدرت باللغتين العربية والفرنسية لعل أهمها:

- الشخصيةالعربيةالإسلاميةوالمصيرالعربي،بيروت،دارالطليعة، 1984
- الكوفة: نشأةالمدينةالعربيةالإسلامية،بيروت،دارالطليعة، 1986
- الفتنة: جدليةالدينوالسياسةفيالإسلامالمبكر،بيروت،دارالطليعة، 1992
- أزمةالثقافةالإسلامية،بيروت،دارالطليعة، 2000
- تأسيسالغربالإسلامي،بيروت،دارالطليعة، 2004
- أوروباوالإسلام: صداماتّقافةوالحداثة،بيروت،دارالطليعة، 2007
- فيالسيرةالنبوية. 1: الوحيوالقرآنوالنبوة،بيروت،دارالطليعة، 1999
- فيالسيرةالنبوية. 2: تاريخيةالدعوةالمحمدية،بيروت،دارالطليعة، 2006
- فيالسيرةالنبوية.3: مسيرةمُحَمَّدفيالمدينةوانتصارالإسلام،بيروت،دارالطليعة، 2014

كما حاز العديد من الجوائز والتكريمات نظير اسهاماته في مجال التاريخ الإسلامي أبرزها:

- الجائزةالوطنيةللعلومالإنسانية (تونس) سنة 1989.
- جائزةسلطانبنعلياالعويسللدراساتالإنسانية (الإماراتالعربيةالمتحدة)سنة 2007.
- الميداليةالذهبيةللدراساتالاجتماعية (تونس) سنة 2015.
- درعالكومارالذهبيللكتابةالإبداعية (تونس) سنة 2016.
- جائزةالمؤسسةالعربيةللدراساتوالنشر (لبنان) سنة 2016.

توفي هشام جعيط في الأول من يونيو 2021 م عن عمر ناهز 86 عاما.

ثانيا: قراءة في الكتاب

يعتبر كتاب الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، الصادر عن دار الطليعة ببيروت، سنة 1992م ثالث الأعمال للراحل هشام جعيط، وأهمها لما احتوته دفتيه من إعادة لقراءة وصياغة الاحداث التاريخية المتعلقة بالفتنة في تاريخ الإسلام المبكر، وقد قسمه الباحث إلى خمسة أقسام حاول فيها التطرق لممهدات الأزمة وأهم المخرجات التي انبثقت منها، وتأثيرها على مسار الدولة الإسلامية فيما بعد.

يستهل المؤلف كتابه عبر مدخل يتحدث فيه عن أسباب البحث في فترة الحكم الأولى مبينا أن هذه الفترة والتي يصطلح عليها في الكتب التاريخية بالفتنة، لازلت تتحكم في مخيال المسلمين إل يومنا هذا، وأن البحث فيها يقودنا إلى فهم جذور الجدل بشأن الخلافة، فهي من جهة تعتبر بذور الانقسامات المذهبية بين المسلمين فهي الفترة التي قادت أهل السنة إلى "إضفاء القدسية على كل المرحلة حين أعلنوا الخلفاء الأربعة كخلفاء راشدين، وجعلوا قسما من عقيدتهم هذه الاعتراف بهم جميعا"[1]، وهي ذاتها الظاهرة التي قادت التشيع للتكون، والتطور، ثم للاستقرار في فروعه، وهي ذاتها أيضا التي شكّلت مذهب الخوارج الذي لا يعترف خلافا لأهل الشيعة والسنة إلا بخلافة الشيخين[2]، من الجانب الآخر وفي العصر الحديث لازالت قضية الخلافة محل جذب بين الباحثين، إذ يرجع القائلون بعلمانية الدولة إلى تلك المرحلة، لينفوا عنها كل طابع هداية دينية، إذ أن الخلفاء الأربعة الأوائل قد تولوا حكما سياسيا خالصا لا علاقة له بالديني(علي عبد الرزاق) بينما يرفض الآخرون هذه النظرة ويتبنون الوجهة المعاكسة، ويرفضون مفهوم الإسلام السياسي، فالإسلام حسبهم يسوس هذا العالم والعالم الاخر.

ليعرج الباحث في القسم الأول من الكتاب والذي عنونه بالعصر التأسيسي، والذي عرّج فيه على تاريخ المنطقة ونقصد شبه الجزيرة العربية قبل البعثة، بحيث أشار إلى أن العرب لم يعرفوا الوحدة إلا قبل ظهور الإسلام بقليل، وكان ذلك على أساس إطار جامع تمثل في الدم واللغة والدين (رمزية مكة وحضورها الديني في مخيال العرب حتى قبل البعثة النبوية)

أما عن الحالة الاجتماعية للعرب، فقد كانت البداوة سائدة، لقد كان الجمهور الأعظم من العرب لا يزال خاضعا للوجود البدوي الرعوي القبلي والحربي[3]، فالبداوة عند العرب كانت ملازمة للهوية وكانت تمثل الشخصية الحقيقية للفرد العربي في شبه الجزيرة العربية، فهي المهيمنة في المجال الأنثروبولوجي، على عكس المدنية التي كانت تمثل واقع أقلية حاولت نقل الواقع القبلي للمنطقة لحياة المدينة متأثرة بمدنيات اليمن والعراق.

---

[1]- هشام جعيط، الفتنة، ص 5.

[2]- المرجع نفسه، ص6.

[3]- هشام جعيط، الفتنة، ص13

إن المدينة تتعارض بشدة مع حياة العرب لكن ذلك لم يمنع من تغير الحياة الاجتماعية للعرب، فقد كان العالم البدوي ينبني حول القبيلة، في حين كان عالم الحاضرة ينبني حول الحرم، وهو ما مهد ظهور مكة كحاضرة كبرى تضاهي اليمامة، بل إنها تفوقت بعد ذلك لمكانتها الدينية عند العرب، لقد كانت مكة قائمة وسط الحرم، الحرم الأهم في كل الجزيرة العربية، الأمر الذي جعلها تقدم نفسها كجهاز سياسي سيحتضن الحدث الأبرز ببعثة الرسول مُحَمَّد ﷺ.

وفي وسط هذه الظروف الاجتماعية والدينية ولد النبي مُحَمَّد ﷺ، الذي ينحدر بخط مستقيم من قصي، أي من مؤسس مكة بوصفها كيانا مدينيا، من الرجل الذي كان قد اقر بها قريشا وكان قد جمع بين يديه الوظائف الدينية والسياسية والعسكرية، كان النبي ينتسب بنوع أخص لعشيرة عبد مناف والتي انقسمت إلى فخذين بعد ذلك، فخذ هاشم، وفخذ عبد شمس.

وقد اختص الباحث ذكر هذين الفخذين بالتحديد لما لهما من تأثير كبير على الأحداث السياسية والدينية للمنطقة بعد وفاة النبي ﷺ.

"وهكذا كان مُحَمَّد رجلا متحدرا من بيت قريش الديني والقيادي، قريش التي تعتبر بذاتها قبيلة العرب الدينية الممتازة، أي كان مُحَمَّد رجلا مؤهلا أكثر من سواه للكلام في موضوعي الدين والسياسة"[1].

لقد مرّ تأسيس الدولة الإسلامية حسب هشام جعيطبثلاث مراحل: الأولى في فترة الهجرة عندما انبثقت سلطة نبوية، والثانية سنة 5 هجرية، بعد حصار المدينة، عندما اكتسبت هذه السلطة الصفات الأساسية للدولة تدريجيا، وعندما اتسعت ركيزتها الفضائية لتشمل الجزيرة العربية بأسرها؛ والثالثة، بعد وفاة النبي ومع أبي بكر عندما أثبتت الدولة الإسلامية أنها قادرة على تدمير كل ارتداد وانشقاق بالقوة[2].

لقد حاول الكاتب في هذا القسم مناقشة مسألة تأسيس الدولة من عهد النبي إلى غاية وفاة عمر بن الخطاب، مبينا أن الرسول ﷺ، كان ومنذ اليوم الأول يبحث عن تأسيس الدولة أي منذ بيعة العقبة الأولى، والتي يرى فيها الباحثون على أنها حلف دفاعي بين الرسول ﷺ ورجال يثرب، غير أن الكاتب يرى أن هذه البيعة تمثل بداية التأسيس الفعلي لدولة النبي، أما عن خلافة أبي بكر فإن هشام جعيط يرى أنها كانت مستندة على فكرة الوراثة القبيلة، والدليل ما ساقه الشيخان من أدلة حول أحقية القرشيين بالخلافة دون غيرهم، فإنه تساءل بالمقابل لماذا أبعدت الأسرة الهاشمية من مسألة الوراثة، ليعود ويبين أن أهم ما ميز خلافة أبو بكر انتصاره على الردة، وتثبيت أركان الدولة التي اهتز كيانها بعد وفاة النبي ﷺ، لتتوالى بعدها مراحل التثبيت لتصل إلى مرحلة أخرى

---

[1]- نفسه، ص 20

[2]- الفتنة، ص26.

أكثر إثارة من سابقتها، إذ وجهت أنظار الدولة إلى الإمبراطورية وكسر شوكة الأعداء، خاصة وأن الإسلام يحمل في مضمونه قيم الجهاد، والموت في سبيل الله، فوجهت الجيوش الإسلامية نحو امبراطورية فارس وبيزنطة، غير أن الغنائم كانت الحافز لذلك.

"إن الإرادة الحربية وايديولوجيا الصراع (الجهاد) كانتا تتقدمان تلك الحوافز والدوافع، فلم تكن اطلاقا في حساب تلك الأيديولوجيا فكرة اعتناق الشعوب الأخرى للإسلام، بل كانت تدخل في حسابها فقط فكرة إقامة سلطان الله من خلال هيمنة الإسلام، فعلى مستوى المحارب العادي، كانت هناك أيديولوجيا غامضة للجهاد بوصفه التعبير عن إرادة الله مع ثوابه في الحياة الأخرى، لكنه لم يكن توجها رساليا لأجل العقيدة والايمان. إن في ذلك تمييزا دقيقا من المهم أن نحيط به، فقد كان الفرد العادي يحارب لكي تكون يد الله هي العليا، ولكي العالم خاضعا لله، ولم يكن يحارب بالضرورة لكي يجر الآخرين إلى عقيدته"[1].

يرى الباحث أن الجهاد وحّد العرب، وما من شيء أثّر فيهم أكثر مما أثر الفتح لتحبيبهم الإسلام، على الرغم من كل الخلافات السابقة، وقد كانت العراق وسورية يمثلان قلب الهيمنة العربية، فهناك حدثت هجرة كثيفة، وانطلاقا من تلك الأقطار جرى فتح مصر من جهة وبلاد ما وراء النهر من جهة ثانية، وهو ما مهد أن تكون المنطقتان مهدا لاحتضان الأحداث التالية.

لينتقل الباحث في القسم الثاني والذي عنونه بـ: الفتنة كأزمة وصدع المقتل، لدراسة علاقة الفتنة بالصراعات السياسية، خاصة في ظل التحولات التي مست الخلافة الإسلامية بعد انتخاب عثمان بن عفان على رأس الخلافة، اذ تكدست الثروات وزادت العطايا، فانتشر الترف في الامصار العربية، وخاصة بين الصحابة (طلحة، الزبير، عبد الرحمن بن عوف وغيرهم) وهي ظاهرة دخيلة على المجتمع الإسلامي، فاستكان الناس للراحة، بعد أن كان همهم فتح الأمصار، وامتدت أعينهم للعطاء، وهي أول فتنة حدثت في فترة خلافة عثمان بن عفان، اذ أنكره الناس عليه طريقة تقسيمه للعطاء، واتهموه بمحاباة أقربائه وتفضيلهم في العطاء، إذ تشير المصادر التاريخية، أن عثمان قد أعطى لمروان ابن عمه خمس غنائم افريقية، وبالطريقة نفسها منح عثمان صدقات قضاعة لعمه الحكم، وأعطى الحارث بن الحكم 300 ألف درهم، وزيد بن ثابت 100 ألف درهم[2]، كما اتهموه بتولية من هم من دمه على الأقطار، إذ عين الوليد بن عقبة عاملا على الكوفة بدلا من سعد بن أبي وقاص، وعين عبد الله بن أبي السرح ابن عمه وشقيقه بالرضاعة عاملا على مصر، كما ألغى قرار النفي إلى الطائف الذي أقره النبي بحق عمه الحكم وأولاده، بل وعينه جابيا لصدقات قضاعة، وغيرها من المآخذ التي كانت سببا في مقتله فيما بعد.

---

[1]- الفتنة، ص43.

[2]- الفتنة ص63

لقد أدّت سياسة عثمان هذه لظهور المطاعن عليه، وانطلاق الألسن جهته بالنقد، وكان ممن واجهه بالنقد أبو ذر وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وهؤلاء يمثلون أهل السابقة، والرعيل الأول من الصحابة، فالأول بدوي من أهل السابقة، والثاني والثالث من الموالي، والذين تماهوا مع الإسلام تماهيا كليا، اذ أتاح لهم الإسلام فرصة السمو وأخذ فرصة الرد على سياسة عثمان بكل حرية، غير أن ردّ عثمان على تجرئهم عليه كان حازما جدا، إذ نفى الأول إلى الربذة، وضرب الثاني وعزل عن خزانة بيت المال، الامر الذي رفع الاحتجاجات من كل صوت (عائشة وعلي)، بل ومنع من مغادرة المدينة ومنع عنه العطاء أيضا، أما عمار بن ياسر، فلم يكن خيرا من سابقيه، إذ جرى القبض عليه والتنكيل به بشدة، لدرجة أن بني مخزوم هددوا عثمان حتى يطلق سراحه، وبالفعل تم علاجه وإطلاق سراحه فيما بعد.

يرى الباحث أن سياسة عثمان تجاه معارضيه كانت تتسم بالانتقاء، فهو لم يكن ليجرء على معاقبة علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف رغم أنهما كانا من معارضي سياسته، لما لهما من السابقة والشوكة، فهما من حيين كبيرين من قريش، وأنه استقوى على أبو ذر وابن مسعود وعمار لأنهم من الموالي والبدو، فهم يفتقرون للمنعة، كما أن تصرفه مزّق أواصر التكافل التي تربط بين الصحابة، وتطاول بشكل خطير على سابقتهم وحصانتهم وهالتهم كقادة طبيعيين للمؤمنين، كما أن تلك الأفعال كانت تعتبر بمثابة أعمال تعسفية، اعتباطية، أعمال جور خارجة عن تقاليد الإسلام وآدابه[1].

غير أن الذي فات هشام جعيط أن الذي يتحدث عنه هو عثمان بن عفان أحد أكبر الصحابة وممن تربوا على يدي الحضرة النبوية، صحيح أن أفعال عثمان بن عفان تنم في ظاهرها عن تعسف وأعمال خارجة عن تقاليد الإسلام وآدابه، لكن المستقرء للأحداث التاريخية يدرك أن شدة عثمان كان مردها أن الأمور كادت أن تخرج عن السيطرة، خصوصا أن الانتقاد والاحتجاج على سياسته قام بها العام والخاص، وأن الأمور تؤول للفلتان في عاصمة الخلافة، خاصة وأن الرهانات كثيرة في ظل استمرار الفتوحات الإسلامية، وتنوع الأعراق الجنسية، ولكن ما تشهد به المصادر أن ولاة عثمان وان كانوا من أقاربه، فإنهم يتمتعون بالكفاءة الإدارية، وقاموا بوظائفهم على أكمل وجه[2].

لقد ركز الباحث في هذا القسم على فترة الفتنة وطرحجملةمنالأسئلةوسعللإجابةعليها: هلكانتبواعثالفتنةلهاعلاقةبصراعاتسياسيةأمدينية؟هلكانالأمرمتعلقًابمطامحمنهذاالطرفأوذاكبغيةالاستيلاءعلىالحكمأمكانم تعلقًابانفعالاتدينيةخالصة؟

---

[1]- الفتنة ص75-77

[2]- الطبري، ج4، ص278.

ويخلصالمؤلفإلىأنإجابةكلسؤالمنهذهالأسئلةيعتمدعلىالمرحلةالتيتطورتإليهاالفتنة؛فالمقاتلونالقارئونللقرآن، أو كما اصطلح عليهم الخوارج؛ كانوايظنونأنقتالهمإنماهوفيسبيلتطبيقأحكامه.

بينماكشفمعاويةفيالمرحلةالأخيرةمنالقتالعنمطامحهللوصولإلىالحكم.

كذلكفإنعليًّاكانيدافععنشرعيةخلافتهباسمسابقتهفيالإسلام،أيأنهكانينافحعنسلطةسياسيةباسممقولاتدينية.

ثميختمالمؤلفهذاالجزءمنحديثهعنطبيعةتلكالمرحلةبالقولإنالسياسيوالدينيقدامتزجامعًا.

فالأمةآنذاكقدقامتعلىأساسدعوةدينيةاسمهاالإسلاموأصبحكلمنالمتنازعينلهتأويلهالخاصلماهودينيبغرضتوظيفهسياسيًا.

فالخوارج (القراؤون)

قتلواعثمانااعتقادامنهمأنهميطبقونفيهحكماللهبعدأنسارفيالأمةعلىمايخالفهديالقرآنوسيرةالنبيوسلفيهأبيبكروعمر،ثمبعدم قتلهلميكنلديهمتصورعنشكلوطبيعةنظامالحكممنبعدهولاالمخاطروالتهديداتالمحيطةبهفأيدوافيالبدايةعليًّاثموقفواضدهوش كلواحربسياسيدينيكأولحزبسياسيدينيفيالإسلاموهوحزبالخوارج.

إن التبعات الكبرى التي حدثت بعد مقتل عثمان كان لها أثر كبير على وجود الدولة الإسلامية، فالتاريخ السياسي للمسلمين، أفرز بنى دينية ومذاهب وحتى شبه أديان مستقلة مثل الشيعة، والخوارج، والتي كان لهما دور كبير في توالي الأحداث التاريخية فيما بعد، وهو ما حاول الباحث تفصيله في القسمين الرابع والخامس، فبعد مقتل عثمان بن عفان طفت على السطح قوى متصارعة يمكن اجمالها في:

1/ الخوارج (القراء): فبعد أن قتلوا عثمان يعلنون تأييدهم لعلي بن أبي طالب خليفة رابع للمسلمين.

2/ عائشة أرملة النبي تثور مع الصحابيين البارزين طلحة والزبير ضد علي مطالبين بالثأر لعثمان.

3/ بعد معركة الجمل دخل معاوية على الخط باسم المطلب عينه (الثأر لمقتل عثمان)، وهو المطلب الذي رآه المؤلف أنه حق أريد به باطل، فمعاوية لم يكن همه الثأر لمقتل عثمان بقدر ما كان يهمه الحفاظ على ملكه في الشام[1].

وبعد استعراض الأحداث التاريخية التي وقعت بعد مبايعة علي بن أبي طالب على رأس الخلافة، والمعارك التي وقعت له، والتي انتهت فيما بعد لمقتله، انتقل المؤلف لمناقشة بعض التفاصيل التاريخية والتي أدت لفشل علي بن أبي طالب في إدارة الدولة الإسلامية ومن بين تلك الأسباب:

[1]- الفتنة، ص 198/141.

أولشيء استرعىانتباهيوأناأغوصفيتحليلأخبارالفتنةهوأنعليبنأبيطالبلميكنلهخصماواحداهومعاوية بلعدة خصوم: عائشة، طلحة، الزبيروكثيرمنكبارالصحابة ممنكانوافيصفالصامتينالمحايدينأوالمعتزلين.

بلأنعليكانخصمالنفسه، فعليحاربعليوهزمهوالخليفةعليهومنخلعالخليفةعليعندماقررأنيتنازلعنلقب "أميرالمؤمنين" أثناءالتحكيم.

لمتكنهذهغلطةعليالوحيدةالفادحةفقدسبقتهاعدةأخطاءفادحةمنهاأنهلميمارسالسياسة كمايجببعدموتعثمان. كانبإمكانهأنيتصدرالمطالبينبالقصاصلعثمانوملاحقةالقتلةلاأنيكونتحترحمتهمأورقابتهمأوأنيتركهذهالمهمةالحقالتييرادبهابا طللعائشةوطلحةوالزبيرومعاوية.

لنتذكرأنعليطالببتنفيذالقصاصعلىعبداللهبنعمربنالخطابلأنهقتلالهرمزانضنامنهبأنهالذييقفوراءقتلأبيهعمربنالخطاب.

تبنيعليلقتلةعثمانمن "القراء" الذينسيشكلوننواةجيشعليثملاحقاسيصبحون " الخوارج " ثمسيخرجونعلىعليويحاربونهثمفيالأخيرسيتمكنواحدمنهم –ابنملجم– منقتله.

والغلطةالأخربعزلهللأشعثوهوكبيرقومهولهدورمؤثرفيتحريكالأتباعفيالكوفة، وفيمرحلةحاسمة — بعدالجملوقبلصفين. وقدلعبالأشعثدوراًأثرسلباعلىسيرمعركةصفينوضغطبقوةفياتجاهالتحكيم.

لميكنموافقةعليعلىالتحكيمهوالخطأفقط، بلموافقتهعلىأنيكونحكمهوأبوموسىالأشعريوكانعليقدعزلهعنالكوفةعند توليهالخلافةثموهذاالأهمأنالأشعريلهمواقفهالمعروفة –قبلمعركةالجمل– المحايدةوالسلميةوالتيلاتصبفيمصلحةعلي. فكانمنالطبيعيأنيتجاهلأبوموسىعليأثناءالتحكيمثميقومبخلعه.

وغلطةفادحةأخربهيأنهلميعمدإلىمهاجمةالشامنجهةالجنوبالغربي — مصر — ومنالجنوب — العراقفينقضعلىمعاوية كالكماشةوهذاماكانيتخوفمنهمعاويةلكنعلياليقمبذلكالهجومثمأنعلياًهملجبهةمصرفيحينكانتحا ضرةفيذهنمعاويةحتىتمكنمنغزوهاقبلموتعلي.

ثمأنالكوفييناًسهموابشكلفاعلفيتقويضعليوسلطتهحينماليطاوعوهفيكثيرمنالمواقفوسيفعلونالشيءلاحقانفسهم عابنهاالحسين.

"إنالتشبعالإيديولوجيوالنرجسيةالمركزية، وبالتاليالتمزقاتالداخلية: هذاكلههوحكرالعراقيينفيذلكالعصر , ثمرةثقافةسياسية —

دينيةمتهيجة، تحطمذاتهابذاتها، ستقومفيمرحلةأولىإلىالهزيمة، لكنهاستقودهمفيوقتمتأخرجداإلىأنيطرحوأنفسهمكمؤسسينل كلتياراتالإسلامالثقافية".

أيأنقضيةعثمان – يقولالمؤلف –

فازتفيالنهايةلكنالمفارقةالأدهىوالأشدأنالنصرالذيحققهاالفريقالذيرفعرايةالثأرلعثمانقدانقلبعليهموعلىكماأنالبصرةلمتكنكلها معلي

"فلوكانتالبصرةكلها،إلىجانبالكوفةكلها،قدحضرتفيميدانالقتال،لكانذلكيعنيضياعمعاويةوخسرانه،ولكنالأمرليكنكذلك. فالأرجحأننصفالبصرةكانتغائبة،أي 30 إلى 35 ألفرجل. وهذادونأننحسبقتلىالجمل،أولئكالأبطالالمدافعينعن "ثقلرسولالله"منالأزديينوخصوصاالضبيين"

الخلافة التي أصبحت ملكًا متوارثًا دون رقيب

أي أن قضية عثمان – يقول المؤلف – فازت في النهاية لكن المفارقة الأدهى والأشد أن النصر الذي حققه الفريق الذي رفع راية الثأر لعثمان قد انقلب عليهم وعلى الإسلام والمسلمين؛ فالخلافة التي ثار الخوارج لإصلاحها مما اعتراها في النصف الثاني من خلافة عثمان قد آلت إلى معاوية والأمويين وأصبحت ملكًا متوارثًا يفعل الحكام في أموال الأمة ما يشاؤون دون حسيب أو رقيب.

وكان ذلك على حساب علي ابن الإسلام المحض الذي لا تقارن أحقيته بالخلافة لسابقته في الإسلام وتقواه وورعه بمعاوية وأولاده الأمر الذي أوجد بذورًا لمطالب ومنازعات ظلت كامنة تنتظر الظهور في موجات من التشنجات لم تنته. وهذا لا ينفي ما قام به بنو أمية في دولتهم من توسعة لحدود الإمبراطورية الإسلامية وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية ومرتكزاتها.

وأخيرا فإن هشام جعيط يرى أن الفتنة لم تكن كلها شر إذ يقول:

"إذاكانتأسيسالإسلامهوثورةالشرقعلىحدتعبيرهيغل،فإنالفتنةكانتثورةفيالثورةأوبالأحرىكانتقدأغنتالواقعالإسلاميبديناميكيةلامثيللهافيتاريخالإسلام"، خاصة في مجال علم الكلام والفرق الإسلامية، التي كان لها دور كبير في تأسيس العقل المسلم وإثرائه.

كما أن الكاتب أتاح للقارئأن يتسلح بأدوات منهجية تفيده ليس فقط في فهم ما جرى في الماضي وإنما في سبر أغوار ما يعتمل في مجتمعاتنا من أفكار أقعدتنا عن النهوض المنشود حتى الآن.

صحيح أن جعيط اعتمد في مؤلفه على أدوات منهجية غربية في غير سياقاتها، إلا أن محاولته لقراءة الأحداث التاريخية قد أثرت التأليف الإسلامي وهو المحسوب على التيار الحداثي.

قائمة المصادر والمراجع

1/ جعيط هشام، الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، دار الطليعة، بيروت، ط4، 2000.

2/ الطبري، مُحَّد ابن جرير، كتاب الرسل والملوك، تحقيق، مُحَّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دط، 1969.